كما كانا كلاهما بدون شفقة ولا خجـل . ولم يكن بين الاثنين إلا شعور الود والاتفاق ، ولا بد ان سبب ذلك كان مرده الى توافق ذوقيهما وأن الأب في فسقه المتعمد لم يكن يضع مانعا أمام فساد ولده ، فقد كانا متفقين بكل فظاظة حتى ليقال انهما في السنوات الأخيرة قد اعتادا على ان يتبادلا بينهما زوجتيهما .

وحل خريف عام ١٥٧٠ فكان مأساويا بالنسبة لروسيا . فبسبب ما ارتكبته الأوبريتشينا من غزوات على اراضي كل أولئك الذين ليسوا من عصابتهـا غـدت كثير من الأراضي بـدون حرث وزرع . وانتشرت السرقات بلا تمييز دون ان يدفع عنها الا القليل من التعويضات المشروعة، وارتفعت الضرائب العينية لدعم الأوبريتشينا والجيش ومصروفات بيت القيصر حتى اضطر المزارعـون الى تحديـد زرعاتهم حتى لا تؤمن لهم إلا غذاءهم الضروري . وتبع ذلك نقص في المحصول . كان المطر غزيرا في الصيف من عام ١٥٧٠ . وفي الخريف شح القمح والشيلم . وفي الشتاء كانت المجاعة حتى أن الفلاحين اضطروا لأكل لحاء الأشجار . وجرت مشاهد من أكل اللحوم البشرية في بعض المناطق حيث افترست بعض العائلات مواليـدها المحدثين . وتبـدى غضب الله بأشكال مختلفة وناء بكلكله فوق روسيا . وانفجر الطاعون مع المجاعة في الوقت نفسه . وبعـد الطاعون والمجاعة اتى الحريق وسيوف التتر ، فقد غزت القبيلة روسيا مرة أخرى مدمرة في طريقها كل شيء .

كان إيڤان يتوقع الخطر . فأرسل في نحو من أواخر عام ١٥٧٠ رسالة تملق إلى السلطان العثماني ليطمئن إلى ان قبيلـة المحاربين المسلمين لن تهاجم مؤخرته عندما يوجه القسم الأقوى من جيشه لمقاتلة السويديين والليڤونيين المتمردين ولكن سفراءه لم ينالوا النجاح . وكان يوجد يومئذ في القسطنطينية عدد كبير من الروس الهاربين من وحشية الأوبريتشينا يقنعون السلطان بأن القسم الأكبر من روسيا كان مستاء من قسوة القيصر الذي بانغماسه في الفجور اضاع هيبته وسلطانه . وكان الإسلام يومئذ في عز قوته فنصف أوروبا ترتجف أمام تهديد الهلال .